

الفصل الثاني

الرسول الأكرم وبناء الإنسان

الرسول الأكرم وبناء الإنسان

* بحث ألقى في مؤتمر المناهج التربوية بطهران عام 2007.

بسم الله الرحمن الرحيم الرسول الأكرم وبناء الإنسان

غني عن البيان أن من السهولة بمكان تشييد الأبنية وشق الطرقات وإقامة الجسور، ولكن من الصعوبة بمكان بناء الإنسان بناءً متكاملًا ومتوازنًا ومتطورًا من جميع الجوانب، إلا أن رسول الله (ص) قد حقق هذا البنيان فأقامه على دعائم من التكامل والتعادل والتوازن بين الدنيا والآخرة، وبين الجسم والروح، وبين النظري والعملي قولاً وممارسة، وبين جميع جوانب الشخصية جسماً وفكراً ونزوعاً وأداءً، ليغدو الإنسان موضوعياً في نظرته وإنسانياً في تعامله، فكانت تربية الرسول مثلاً يحتذى، وقدوة يقتدى بها في بناء الإنسان، وفيما يلي تبيان لهذه التوازنات وإيضاح لتلك السمات.

أولاً . التكامل والتعادل

1. بين الدنيا والآخرة

دعت التربية الإسلامية إلى أن يتمتع الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وفي الوقت نفسه أن يؤدي الواجبات المترتبة عليه تجاه خالقه، إذ ليست العبادة الحق في أن يقف المرء نفسه لها دون غيرها وغير عابئ بأموره الدنيوية ومتطلباته الحياتية. وليس من الإيمان في شيء أن يتوجه الإنسان إلى أعماله الدنيوية ناسياً ما يجب عليه أداءه تجاه خالقه من تعبد، قال تعالى: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا»⁽¹⁾.

وأبان رسول الله (ص) أنه ليس خيراً من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيراً من أخذ من هذه وهذه، ولقد مرَّ بإنسان معتكف في المسجد لا يغادره، فسأل عمن يعيله، فقيل له: إن أخاه يعيله يا رسول الله، فقال: إن أخاه أفضل منه.

⁽¹⁾ سورة القصص /77/.

ودعا إلى أنه لا رهبانية في الإسلام، وأشار إلى أن الله جميل يحب الجمال منطلقاً من قوله تعالى: «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»⁽²⁾. ومن قوله: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»⁽³⁾. وهل ثمة أسمى من الدعوة إلى إعمار الحياة في قول رسول الله (ص): «لو أن في يد أحدكم فسيلة يود غرسها، وقامت الساعة فلا يبرحن مكانه حتى يتم غرسها»⁽⁴⁾.

2. بين الجسم والروح

من المعروف أن العرب في جاهليتهم كانت تستبد بهم أهواؤهم وغرائزهم، ولقد أبان جعفر بن أبي طالب عليه السلام حال العرب قبل الدعوة عندما أوضح للنجاشي ملك الحبشة يوم أن هاجر إليها مع نفر من رفاقه ماهية الرسالة الإسلامية الجديدة قائلاً: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم الله علينا، وأحللنا ما أحل الله لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

⁽²⁾ سورة الأعراف /31/.

⁽³⁾ سورة الأعراف /32/.

⁽⁴⁾ مسند أحمد. ج3. ص184.

ونستشف من خلال هذا القول تحكم العادات بالنفوس واستبدادها بها، ومدى المعاناة المرة والمكابدة القاسية التي مرَّ بها معتنقو الدعوة الجديدة حتى استطاعوا أن يكونوا سادة نفوسهم أولاً، ومن ثم سادة العالم آنذاك ثانياً.

ومن البدهي أن تحريم ما ألفتة نفوسهم، واعتادت عليه أجسامهم، لم يتم دفعة واحدة، وإنما تم ذلك بالتدرج، وكانت المكابدة التي كابدوها جهاداً أكبر، فلقد كان رسول الله (ص) يقول لأصحابه بعد كل غزوة: «الآن عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وعندما كانوا يسألونه: وما الجهاد الأكبر إذن يا رسول الله؟ فيجيب: الجهاد الأكبر هو مجاهدة النفس ومغالبة الهوى»⁽⁵⁾.

ولما كان الجسم مركز العقل ووعاء النفس، فقد حرصت التربية الإسلامية على أن يكون صحيحاً ومعافى. ومن الأساليب التي حرصت عليها في الحفاظ على صحته الوقاية، فالوقاية خير من العلاج، فحرمت الزنى ووقاية للجسم من الأمراض السارية، وحرمت الخمر ووقاية للجسم من الأمراض، وللعقل من الانحراف. وليست الدعوة إلى الاعتدال في المأكل والمشرب إلا وقاية للجسم من أمراض الهضم، و ما يجره ذلك على القوى العقلية والنشاط الفكري للإنسان، ولذلك كان المبدأ واضحاً: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»⁽⁶⁾، وهو القائل عليه السلام: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»⁽⁷⁾.

ومن أساليب الوقاية التي دعا إليها الإسلام النهي عن أكل الميتة وشرب الدم لما في ذلك من الجراثيم الفتاكة التي تؤدي إلى تسمم الجسم كما أثبت ذلك علم الطب المعاصر، ويعد مبدأ الحجر الصحي في أيامنا من المبادئ التي وضع أسسها الإسلام، فهذا هو ذا رسول الله (ص) يقول: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا

⁽⁵⁾ رياض الصالحين للإمام النووي . المكتب الإسلامي . دمشق . ص 88.

⁽⁶⁾ سورة الأعراف /31/

⁽⁷⁾ رياض الصالحين للإمام النووي . بيروت . 1973 . ص 357.

تخرجوا منها»⁽⁸⁾. ذلك لأن الدخول إلى الأرض الموبوءة يعرض المرء للمرض، كما أن الخروج من المنطقة الموبوءة يؤدي إلى أن يحمل المصاب الجراثيم معه ونقل العدوى إلى الآخرين من الأصحاء.

ولما كان انتقال الجراثيم في أغلب الأحيان يتم بسبب عدم النظافة، دعا إليها الإسلام بقوة، فما الوضوء إلا تعويد للناس على نظافة الأجسام، وما أمر الناس بالسواك إلا وقاية للأسنان من التسوس وحفظ للفم من الرائحة الكريهة. وعدت التربية الإسلامية النظافة من الإيمان ونظافة الروح من نظافة الأبدان، فركز الرسول (ص) على أن تكون أجسام أصحابه قوية وسليمة كي تكون قادرة على القيام بعبء الدعوة الجديدة وتحمل ما يعترض طريقها من عذاب ومشقة، ومن هنا قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»⁽⁹⁾.

والشخصية القوية التي دعا إليها الإسلام هي تلك الشخصية القادرة على رد العدوان، إنها الشخصية التي تأبى الذل، وترفض الهوان، وتنشد العدل والمساواة، وترد تعسف المتجبرين وقوى الاستكبار. أما قوة الجسم وحدها فلا خير فيها إن لم تتزامن معها قوة الروح، فإذا تحقق التكامل بين الجانبين اتسمت الشخصية بالاستواء.

ولقد تحقق هذا التكامل بين الجانبين في بعض صحابة رسول الله الذين كانوا يقدمون أنفسهم رخيصةً في سبيل المبادئ والمثل التي عنها يدافعون، فها هو ذا جعفر بن أبي طالب يقاتل الأعداء على فرسه في غزوة مؤتة، ثم يضطر للنزول عنها فيقاتل مترجلاً، فقطعت يمينه، فحمل اللواء بيساره، فقطعت يساره، فاحتضن اللواء، وظل صامداً حتى استشهد، ووجد فيه بضعة وسبعون جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح.

3 بين النظري والعملي

⁽⁸⁾ المرجع السابق . ص 967.

⁽⁹⁾ المرجع السابق . ص 119.

قرنت التربية الإسلامية القول بالعمل والمبدأ بالسلوك، وإذا كان المفكر الروسي «تولستوي» يقول: «إنه من السهولة بمكان وضع آلاف النظريات، ولكن من الصعوبة بمكان تحويل نظرية واحدة إلى تطبيق» فإن التربية الإسلامية استطاعت بمفاهيمها وطرائقها أن تقرن بين الجانبين النظري والعملي، وقد كان هذا الاقتران متزاملاً في سائر مواقف الحياة وميادين المجتمع انطلاقاً من قوله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»⁽¹⁰⁾.

والاستقامة هي الإخلاص في العمل والنزاهة والصدق في إنجازه، وفي هذا بيان واضح لقرن القول بالعمل والإيمان بالسلوك، وهذا ما أوضحه رسول الله في تعريفه للمسلم قائلاً: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»⁽¹¹⁾، وهنا أيضاً تزامن بين القول والعمل، فاللسان إشارة إلى القول، واليد إشارة إلى العمل، فإذا كان قوله خيراً، وكان عمله مفيداً لمجتمعهم كان مسلماً حقاً، وإلا فإن سمة الإسلام تنتفي عنه.

ولما كانت العملية التربوية هي غرس مفاهيم وتكوين اتجاهات وتعديل سلوك استطاعت التربية الإسلامية أن تغرس مفاهيم من مثل المساواة والأخوة والحرية والديمقراطية، وأن تكون الاتجاه نحو الغيرية والإيثار والجهاد، وأن تعدل السلوك من الشطط والانحراف إلى الاعتدال والاستواء، وأن تحول المفاهيم المغروسة والاتجاهات المكونة إلى واقع عملي ملموس.

فالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على سبيل المثال تعد من نتاجات تلك التربية، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فقدموا إلى المدينة وهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، والأنصار مستقرون في بيوتهم وأموالهم بين أيديهم، فليلتفت كل منهم إلى أخيه من المهاجرين، وليفتح له بيته، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها، لم يفعل ذلك أحد من

⁽¹⁰⁾ سورة فصلت /30.

⁽¹¹⁾ فيض القدير (شرح الجامع الصغير) للعلامة المناوي . الجزء السادس . مطبعة المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . 1938

الأنصار وهو مستاء، بل كان يشعر بالسرور والارتياح، وهو ينشد رضا الله، وكان كل منهم يتسابق إلى تقديم العون إلى أخيه بكل إيمان.

ولقد ربط الرسول المرابي بين إيمان المرء ونمو النزعة الغيرية في نفسه، فمن ضمرت عنده النزعة الغيرية لم يكن مؤمناً، قال (ص): «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹²⁾.

وهدفت التربية الإسلامية فيما هدفت إليه إلى غرس مفهوم التسامح في النفوس ومعاملة الآخرين بإباء وشمم انطلاقاً من قوله تعالى «ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»⁽¹³⁾. ومن قوله: «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين»⁽¹⁴⁾.

ومن دروس التربية العملية في هذا المجال موقف الرسول من المشركين بعد فتح مكة، هؤلاء الذين آذوه وشتموه وأخرجوه من دياره، وبعد أن دخل إلى مكة فاتحاً قال لهم وهو في ذروة انتصاره: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال (ص): «اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

4. بين سائر جوانب الشخصية الإنسانية

كانت التربية التقليدية تركز على جانب واحد من جوانب الشخصية الإنسانية وهو الجانب العقلي، ومع تقدم البحوث العلمية رأت التربية الحديثة أن الاقتصار على جانب واحد من جوانب الشخصية الإنسانية يعد مسخاً وتشويهاً لهذه الشخصية. ولهذا انطلقت من

⁽¹²⁾ الترغيب والترهيب . ج 5 . ص 36.

⁽¹³⁾ سورة فصلت / 34.

⁽¹⁴⁾ سورة الأعراف / 199.

معطيات علم النفس الحديث الذي يرى أن القوة الدافعة في حياة الإنسان ليست الفكر وحده أو العقل وحده، بل هي مجموعة من النزعات تتولد عنها الميول والعواطف والاتجاهات، فالحياة ليس قوامها المعرفة فقط، إنما قوامها المعرفة والوجدان والنزوع والأداء.

ولقد سبقت التربية الإسلامية التربية الحديثة في نظرتها إلى تربية الإنسان تربية متكاملة ومنسجمة ومتعادلة بين سائر الوجوه والجوانب جسمياً ونفسياً وخلقياً وجمالياً وفكرياً واجتماعياً وإنسانياً، ذلك لأن عملية البناء العظيم للمجتمع لا يمكن أن تتم من غير تطوير الإنسان من جميع الجوانب، فنظرت إليه على أنه كائن اجتماعي يعمل بوعي على تكوين الحياة الاجتماعية ومن ثم الإنسانية، ويطور نفسه في الوقت ذاته على أنه شخصية منسجمة ومتكاملة.

ومن أجل ذلك ركزت على تنمية الإنسان عاطفياً ونفسياً بعد أن ركزت على تنميته فكرياً، ودعت إلى تنمية النوازع الخلقية والسمو بها، وتقوية الجسم والنفس والإحساس الجمالي بالكون والحياة، على أن يكون ذلك كله في خدمة المجتمع والارتقاء به والنهوض بمحتواه، والعمل على رفاهية الإنسان وسعادة البشرية في كل مكان.

وإذا كانت التربية الإسلامية قد حرصت على تقوية الجسم وبنائه صحيحاً قوياً ومعافى فما ذلك إلا لأن الجسم وعاء العقل، فالعقل السليم في الجسم السليم، وأولت هذه التربية الناحية الفكرية من الشخصية اهتماماً كبيراً، فعَدَّ رسول الله (ص) طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأبان أن «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»⁽¹⁵⁾. ووجه أصحابه إلى البحث في أسرار الكون وإدراك العلاقات بين ظواهره انطلاقاً من قوله تعالى: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا»⁽¹⁶⁾. وطالما دعت كثير من الآيات الكريمة إلى التفكير والتعقل.

(15) رياض الصالحين . ص 755.

(16) سورة سبأ / 46.

كما أولت التربية الإسلامية الجانب الخلقى في بناء الشخصية كل اهتمام، فالإنسان الغني بخلقه هو الغني، وعندما سئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «التقوى وحسن الخلق»⁽¹⁷⁾.

ومن مظاهر الأخلاق التي اتسمت بها تلك التربية الرفق بالآخرين وحسن معاملتهم، والله يقول لنبيه المصطفى: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»⁽¹⁸⁾. والشخصية السوية هي التي تتسم بالتواضع والعفوية لا بالتعجرف والكبرياء، كما تتسم بالصدق في القول والسلوك والبعد عن النفاق والرياء، ولقد أشار الرسول الكريم إلى «أن من شرّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»⁽¹⁹⁾.

وفي ضوء هذه التربية تخرّج أناس كانوا يقفون أمام الحكام بكل قوة جاهرين بالحق، فها هوذا سعيد بن جبير لم يتملق الحجاج ويتقرب إليه على حساب الأبرياء، فمات شهيد المبادئ التي استقاها من مدرسة رسول الله.

أما الجانب الاجتماعي فقد انطلقت التربية الإسلامية في بنائه من الخلية الأولى في المجتمع، ألا وهي الأسرة، ذلك لأن صلاح الأسرة إنما يؤدي إلى صلاح المجتمع. ولما كانت الأم تتحمل الكثير من المشقة والعذاب في سبيل أبنائها وضعتها رسول الله في المرتبة الأولى إدراكاً منه لدورها الفعال في المجتمع، إذ بصلاحها تصلح الأسرة وبالتالي المجتمع، ولهذا عندما سئل من قبل أحد أصحابه عن أحق الناس بحسن صحابته، «قال له: أمك، قال ثم من؟ قال: أمك؟ قال: ثم من؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أبوك»⁽²⁰⁾.

ولذلك كان العقوق من أكبر الكبائر، ولقد أوضحت هذه التربية الواجبات المترتبة على الآباء تجاه الأبناء، وواجبات كل من الزوج والزوجة، وحقوق كل منهما على الآخر.

(17) الترغيب والترهيب . ص 77.

(18) سورة آل عمران /159/.

(19) رياض الصالحين . ص 449.

(20) المرجع السابق . ص 249.

وفي الحلقة الثانية بعد صلة الرحم، انتقلت التربية إلى حقوق الجار، فأشارت إلى أن الإنسان المتزن في شخصيته هو الذي يرفع حقوق جاره فإذا استعان به جاره أعانه، وإذا استنصره هبّ لنصرته، وإذا مرض عاده، وإذا مات شيع جنازته، وإذا أراد أن يبني بيتاً إلى جواره فعليه ألا يحجب النور والهواء عنه.

وأبان رسول الله أن صحة إيمان المرء متوقفة على كفاه عن جاره، إذ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قالوا: من ذاك يا رسول الله؟ قال: الجار لا يأمن جاره بوائقه، قالوا: يا رسول الله: وما بوائقه؟ قال: شره»⁽²¹⁾.

وفي الدائرة الثالثة من بناء الشخصية اجتماعياً انتقلت التربية إلى علاقة المرء بسائر أفراد المجتمع فركزت على المشاركة الوجدانية والتعاطف بين أعضاء المجتمع كافة، فأشارت إلى أن المجتمع المنشود هو المجتمع الذي يحب فيه المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»⁽²²⁾، وأن «خير الناس أنفعهم للناس»⁽²³⁾.

وحرص الرسول في تربيته لأبناء الأمة على يقظة الشعور بالمسؤولية في مختلف مرافق المجتمع كما يتجلى ذلك في قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راع ومسؤول عن رعيته»⁽²⁴⁾.

واهتمت التربية الإسلامية بالجانب الجمالي في بناء الشخصية، والجمال الذي نشدته هو التناسق والانسجام مما يسر النفس ويمتدح الحس، وعندما دعا رسول الله (ص) أصحابه إلى

(21) الترغيب والترهيب . ج 5 . ص 36.

(22) المرجع السابق . ص 42.

(23) فيض القدير . ج 3 . ص 481.

(24) رياض الصالحين . ص 235.

إنعام النظر في خلق الله كانت دعوته تلك لا تتضمن النواحي الفكرية وحدها، بل تشمل بالإضافة إلى ذلك النواحي الجمالية وما يحس به الإنسان من تناسق وانسجام وائتلاف في مظاهر هذا الكون من نجوم وسماء ووديان وجبال وأنهار وبحار... الخ.

إن الانسجام بين مظاهر هذا الكون والائتلاف بين عناصره ينعكس على النفس المتأملة فيضفي عليها الانسجام هو الآخر، ويسبغ عليها صفة التوحيد والتناغم، وفي قول الرسول: «إن الله جميل يحب الجمال»، دعوة إلى أن ينهل المرء من معين الجمال الذي أوجده الله في مخلوقاته، وإلى أن يستمتع بمظاهر هذا الجمال متمثلة في التناسق والانسجام، ولا يظنَّ أحد أن الجمال يقتصر على الظاهر فقط، بل هو يشمل الداخل أيضاً، فلقد روي أن الرسول (ص) قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال له رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال الرسول (ص): إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»⁽²⁵⁾.

ويتضح من خلال ذلك أن الجمال الخارجي متمثلاً في الشكل والهئية لا يغني عن الجمال الداخلي، إذ إن نظافة الجسم والملبس والمسكن وحسن المظهر في ذلك كله لا تغني عن نظافة الروح والنفس والعقل وجمالها، ومن يشعر بالجمال ويحس به يدفعه ذلك إلى فعل الجمال، فعل كل ما هو خير لأن الخير في الجمال.

والفن بما يشتمل عليه من أفانين الجمال وسيلة لتربية الإنسان وإسباغ الجمال على نفسه، وخلق الوحدة والانسجام بين عناصرها، فإذا لم يدرّب الإنسان على الإحساس بالجمال بحيث يكتشف قوانينه في أجل الأعمال وأجداها فإنه يحرم عمل الخير وسمة الصدق لأن الجمال يعني التناسق. ولن تكون الشخصية منسجمة ومتوازنة ومتطورة من الوجوه جميعها، إلا إذا كان الإحساس الجمالي فيها نامياً.

⁽²⁵⁾ المرجع السابق. ص413.

ثانياً . الموضوعية

وتتجلى هذه الموضوعية في اعتماد الأسلوب العلمي طريقاً لإدراك العلاقات بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية فهماً وتحكماً وتنبؤاً. وإذا كانت الملاحظة طريقاً من طرق جمع المعلومات والحقائق فلتكن هذه الملاحظة دقيقة، قال تعالى: «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً»⁽²⁶⁾.

فليكن الإنسان مسؤولاً عما يراه فيسجله بأمانة علمية، قال (ص): «أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا»⁽²⁷⁾. كما أن على الإنسان أن يتثبت من صحة ما يسمعه، ويتوثق من صحته، وعليه ألا يرويهِ أو ينقله إلى الآخرين إلا بعد التثبت من صحته، ولقد قال الإمام علي عليه السلام: إن بين الحق والباطل أربعة أصابع، أن تقول سمعت فهذا هو الباطل، وأن تقول رأيت فهذا هو الحق، وقال الرسول (ص): «بئس مطية الرجل زعموا»⁽²⁸⁾.

ومن دروس التربية العملية في هذا المجال موقف الرسول من أصحابه يوم وفاة ابنه إبراهيم، فقد حدث أن كسفت الشمس في ذلك اليوم، فما كان من أصحابه إلا أن قرنوا بين الوفاة والكسوف، وأخذوا يتحدثون عن ذلك مما دفع الرسول (ص) إلى أن يوضح لهم «أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»⁽²⁹⁾. وفي هذا الموقف الذروة في اعتماد الأسلوب العلمي، فلقد كان حريصاً على أن يبعد أصحابه عن الخرافات والترهات، وعلى أن يكونوا واقعيين وعلميين في نظرهم إلى الحياة والكون.

وكان الرسول (ص) حريصاً على أن يعمد أصحابه إلى تخطيط شؤون حياتهم ومستقبلهم، ذلك لأن الإنسان العاقل هو الذي لا يترك مصيره للعواصف تعبت به كيفما تشاء، بل يرسم الخط لشؤون حياته، و تكون لديه القدرة على التنبؤ بأنواع الظروف المرتقبة

(26) سورة الإسراء /36.

(27) رياض الصالحين . ص844.

(28) فيض القدير . ص214.

(29) البخاري . 986.

التي ستواجهه فيما بعد، فقال (ص): «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»⁽³⁰⁾.

والتخطيط الذي قصده هو عملية يرى فيها الفرد نفسه كما ترى الجماعة فيها نفسها على أساس من الوعي والإدراك لنشاطها وأهدافها، وما ينطبق على الفرد ينطبق على الأمة كما ينطبق على المجتمع، فالمجتمعات الجادة الحكيمة هي التي تعرف كيف تخطط لمستقبل أبنائها على دعائم من الوعي والذكاء.

ومن سمات الموضوعية ألا يكون الإنسان متشبهاً برأيه، ومتحيزاً له، ومتعصباً ضد كل رأي آخر يخالف ما يراه، بل أن يعتمد على استشارة الآخرين وتبادل وجهات النظر معهم وصولاً إلى أفضل الآراء التي تعود بالخير والنفعة العميم عليه وعلى مجتمعه، وها هو ذا رسول الله (ص) يستشير أصحابه قبل معركة بدر حول موقع المعركة والأسرى ويستشيرهم في غزوة الأحزاب، فأشار عليه صاحبه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة، وكان من رأي رسول الله في هذه الغزوة أن يبقى في المدينة ولا يخرج لملاقاة المشركين، ولكن بعض الشباب المتحمس من الاميذه رأوا أن يخرج لملاقاهم ووافقهم على رأيهم، دون أن يستبد برأيه وهو القائل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد»⁽³¹⁾.

ولما كانت الموضوعية تتطلب النضج الانفعالي حرصت التربية الإسلامية على أن يتسم المرء بالاتزان والاستواء، ذلك لأن الانفعال والغضب في حرارة واندفاع ليسا من صفات النضج. أما ضبط الأعصاب فدلالة على النضج واكتمال النمو الشامل والحكمة والتعقل، ولذلك عندما جاء رجل إلى رسول الله وطلب إليه أن يوصيه، قال له: «لا تغضب»، وكررها مراراً⁽³²⁾.

⁽³⁰⁾ الحاكم بسند صحيح.

⁽³¹⁾ فيض القدير (شرح الجامع الصغير). ص 442.

⁽³²⁾ البخاري . 5651.

والإنسان الموضوعي هو الذي يتحكم بأعصابه، ويحافظ على هدوئه واتزانه في مواقف الانفعال، فلا يغضب ولا يثور، لأن الغضب يبدد القوى العقلية ويشل التفكير، ويشتت الانتباه، ومن هنا قال رسول الله (ص): «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»⁽³³⁾، وكان مثلاً أمام أصحابه في رحابة الصدر وهو القائل: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

والواقع أن مواقف الغضب تكشف عن معادن الرجال، ولقد عبّر الشاعر عن ذلك قائلاً:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

ثالثاً . الإنسانية

غني عن البيان أن التربية الإسلامية إنما هي تربية إنسانية، وأن الرسالة الإسلامية للناس كافة، ذلك لأن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء»⁽³⁴⁾، والهدف من وجود الناس على الأرض إنما هو التعارف والتحاب والتآلف «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»⁽³⁵⁾.

وعندما حرص الرسول المرابي على بناء الشخصية الإنسانية بناءً متوازناً ومتكاملاً كان الجانب الإنساني يحتل حيزاً كبيراً في ذلك البنيان، إذ إنه نظر إلى الإنسان نظرة علمية في منأى عن لونه أو جنسه أو عشيرته أو نسبه أو غناه، فتساوى في التربية الإسلامية بلال الحبشي وسلمان الفارسي وحمزة وعمار، معيار التفاضل بين هؤلاء جميعاً صلابة الإيمان واستقامة

⁽³³⁾ البخاري . 6625 .

⁽³⁴⁾ سورة النساء / 1 .

⁽³⁵⁾ سورة الحجرات / 13 .

العمل، «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى» انطلاقاً من قوله تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»⁽³⁶⁾.

فجميع الناس على قدم المساواة من حيث الحقوق والواجبات، وهم سواسية كأسنان المشط، وإذا كان بعض من انضوى تحت لواء هذه الدعوة يظن أن نسبه يجعل له مكانة دونها مكانة الآخرين فقد كان على خطأ، إذ إن أعز الناس بالعبد تساوى، والعمل البناء هو الذي يميز بين هؤلاء الناس فقال (ص): «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»⁽³⁷⁾.

وما من منهج تربوي أولى الكرامة الإنسانية رعايته واهتمامه مثل المنهج التربوي الإسلامي، فالتربية اليونانية لم تكن تنظر نظرة واحدة إلى مواطنيها، فالناس طبقات منهم العمال وهؤلاء لا يصلحون لحياة التأمل السامية، ومنهم الأحرار والفلاسفة الذين يعيشون من كد هؤلاء ويقفون حياتهم للفكر والثقافة، والتربية الموجهة إليهم لا تتصل بأي صلة بالأعمال التي تمارس من أجل الكسب، فهذه الأعمال كما وصفها أرسطو أعمال آلية تفسد الروح، ولا تليق إلا بالدهماء على حد تعبيره.

و«جان جاك روسو» رائد التربية الطبيعية جحد المرأة حقها في كتابه المشهور «اميل»، وجعلها لا ترتفع عن مرتبة الخدم والعبيد. أما التربية الإسلامية عقيدة وعبادة ومعاملة فقد تبنت المساواة بين الناس، وإذا كانت اليونسكو قد رفعت شعار «التربية من أجل السلام» منطلقة من أن معاقل السلام ينبغي أن تقام في عقول الناس فإن التربية الإسلامية أرست دعائم السلام وحققت الاستقرار والأمان لا للمسلمين فحسب، بل لغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، إذ لم تكن الوظائف تعطى إلا للمستحق الكافي بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، ويقول «مارك سايس» في وصف الإمبراطورية العربية الإسلامية: «كان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة»⁽³⁸⁾.

⁽³⁶⁾ سورة الحجرات /13/.

⁽³⁷⁾ المعجم المفهرس مادة بطأ. ص188.

⁽³⁸⁾ د. مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا. المكتب الإسلامي. 1977. ص92.

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، إذ كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم ودياناتهم، قال خلف بن المثنى: «لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو وهو سني، والحميري الشاعر وهو شيعي، وصالح بن عبد القدوس وهو زنديق، وسفيان بن مجاشع وهو خارجي صفرى، وحماد عجرد وهو زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودي، وابن نظير المتكلم وهو نصراني، وابن سنان الحميري الشاعر وهو صابئي، وكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف نهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم»⁽³⁹⁾.

ويمكننا أن نتصور نبل الغايات وسمو الأهداف الإنسانية التي اختطها الرسول (ص) لأصحابه في جهادهم من خلال وصيته لهم في غزوة مؤتة، إذ قال: «أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا «الغلول: السرقة»، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»⁽⁴⁰⁾.

أين هذه التعاليم السمحة مما يفعله الصهاينة في فلسطين المحتلة، وما فعلوه في لبنان من قتل وتدمير وإحراق للبشر والشجر والحجر؟

ولقد تجاوزت التربية الإسلامية في إنسانيتها حدود الإنسان إلى الحيوان، إذ إنهما مضرب المثل في الرفق بالحيوان والرحمة به، فقد تدخل هذه الرحمة صاحبها الجنة، قال رسول الله (ص): «بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملاً خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد

⁽³⁹⁾ المرجع السابق.

⁽⁴⁰⁾ سنن النسائي . 8767.

رطبة أجر، كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار. دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»⁽⁴¹⁾.

تلك هي بعض مظاهر التربية الإسلامية في المجال الإنساني، ولا يمكننا حصر جميع هذه المظاهر في هذه العجالة، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

⁽⁴¹⁾ البخاري . 3071.